د. عماد أحمد الصياد، حضارة المقر: أضواء على أقدم شواهد لصناعة النسيج في شبه الجزيرة العربية، العدد الثاني، ٥ – ٢٦.

حضارة المَقَر:

أضواء على أقدم شواهد لصناعة النسيج في شبه الجزيرة العربية

د. عماد أحمد الصياد

جامعة الملك خالد – السعودية

جامعة الاسكندرية – مصر

الملخص:

باشرت الهيئة العامة للسياحة والآثار أعمال الحفائر والكشف عن مقتنيات موقع حضارة المقر، وذلك بعدما اكتشف أحد المواطنين بمحض الصدفة بعضًا من اللقى الأثرية المنتشرة على سطح الموقع، وذلك في عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. وكان لهذه القطع الأثرية المُكتشفة بالغ الأثر في مد جذور التاريخ القديم بالجزيرة العربية، والمملكة العربية السعودية بوجه خاص إلى فترات زمنية أكثر عمقًا مما كان سائدًا قبل اكتشاف هذا الموقع. خاصة وأن تحليل بعض المعثورات من خلال أسلوب كربون ١٤ قد أكد على أن الإطار الزمني للموقع يرجع إلى ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد، أي منذ ٩٠٠٠ عام من الوقت الحالي. وعلى الرغم من تعدد أشكال المعثورات التي عكست ما أدركه إنسان هذه الحضارة من التقدم والرقي، فإن هذا البحث يلقي الضوء على جانب واحد من تلك المظاهر الحضارية التي كان لها الريادة عن باقي أطراف الجزيرة العربية، ألا وهو صناعة النسيج، التي شهدت كثيرًا من البقايا الأثرية بالموقع.

الكلمات المفتاحية: حضارة المقر؛ صناعة النسيج؛ شبه الجزيرة العربية؛ المعثورات.

Al-Magar Civilization: Lights on the Earliest Evidence of the Textile Industry in Arabian Peninsula

Emad A. el-Sayyad
King Khalid University-Saudi Arabia
Alexandria University-Egypt
eelsayyad@kku.edu.sa

The Saudi Commission for Tourism and National Heritage began excavation work and revealed the holdings of the Al-Magar civilization site, after a citizen accidentally discovered some of the archaeological finds spread on the surface of the site in the year 1431 AH - 2010 AD. These discovered artifacts had a great impact in extending the roots of the ancient history of Arabia and the Kingdom of Saudi Arabia in particular to deeper periods of time than prevailing before the discovery of this site. Especially since the analysis of some finds through the Carbon 14 method has confirmed that the time frame of the site dates back to 7000 BC, that is, 9000 years from the present time. In spite of the multiplicity of forms of finds that reflected the progress and sophistication of the human being of this civilization, this research sheds light on one side of those civilizational aspects that had pioneered the rest of the Arabian Peninsula, namely the textile industry, which witnessed a lot of archaeological remains in the site.

Keywords: al-Magar Civilization; Textile industry; Arabian Peninsula; discovered artifacts.

المقدمة:

من المظاهر الحضارية غير المألوفة التي تميز بها موقع حضارة المقر، هو أن يجمع بين طيات أطلاله العديد من الأنشطة البشرية المتباينة، والتي تحتاج إلى عصور تاريخية طويلة، كي يستطع الانسان أن يدركها، خاصة وأننا نتحدث عن مرحلة زمنية تعود إلى ما قبل التاريخ، التي أصبحت تعرف اصطلاحًا بين باحثي التاريخ بالعصر الحجري الحديث، ذلك الأخير الذي لم يلبث فيه الإنسان أن عرف قدرًا من الاستقرار، وتنظيم لبعض عاداته وسلوكياته الحياتية التي لطالما اتسمت من قبل بعشوائية التصرف، وغموض المبتغى. ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على واحدٍ من تلك الأنشطة غير المتوقعة من حضارة إنسانية، لا زالت في مرحلة المهد، ألا وهو صناعة النسيج التي شهد عليها العديد من البقايا الأثرية في موقع المقر.

جدير بالذكر أن أرض المملكة العربية السعودية تضم العديد من المواقع الأثرية التي تؤرخ لحضارات العصور الحجرية بصورة عامة، والعصر الحجري الحديث –الذي تنتمي له حضارة المقر– بصورة خاصة، وذلك على طول البلاد وعرضها. وقد اتسم ذلك العصر بالدقة والإتقان في صناعة الأدوات الحجرية، إلى جانب التحول في ظروف العيش من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة إنتاجه عن طريق الزراعة واستئناس الحيوانات[١].

وقد ضم جنوب غرب الجزيرة العربية ومنطقة عسير العديد من مواقع الاستقرار لإنسان العصر الحجري الحديث، الذي خلف من ورائه العديد من الشواهد الأثرية التي أكدت بلوغه درجة كبيرة من الإتقان في فن التعامل مع الحجر في صناعة أدواته، إذ أمكن العثور على مجموعات متنوعة من رؤوس السهام المدببة والمصنعة بدقة عالية من حجر الكوارتزيت أو الصوان، والتي أمكن تحديد الإطار الزمني لها في الفترة (٥٠٠٠–٢٠٠٠ق.م) استنادًا على مثيلاتها في العراق وسوريا القديم[٢]. وذلك على عكس ما كان سائدًا من قبل بأن الغالبية العظمى من أماكن الاستقرار البشري في العصر الحجري الحديث في المملكة إنما كانت تتمركز على ساحل الخليج العربي بالمنطقة الشرقية، فقد عثر هناك على ما يقرب من ٦٠ موقعًا أثريًّا، يضم العديد من شواهد حضارية للاستقرار البشري[٣]. وفي عام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م أعلنت الهيئة العامة للسياحة والآثار الكشف عن موقع أثري على درجة كبيرة من الأهمية، يقع في منطقة متوسطة بين وداي تثليث ووادي الدواسر، ويبعد عن مركز القرية التابع

لمحافظة وادي تثليث، ما يقرب من ٤٠كم. ويعرف هذا الموقع باسم المقر، فقد أُطلق اسم الموقع من بعد على هذا النتاج الحضاري المعثور عليه بالموقع؛ لتُعرف في التصنيف الزمني باسم حضارة المقر[٤].

وواقع الأمر أن موقع المقر ينفرد بالعديد من السمات الحضارية التي تستدعي لأكثر من وقفة، إلى جانب العديد من الدراسات البحثية بُغية إماطة اللثام عن ماهية المعثورات التي أكسبت الموقع تفردًا عن باقي مواقع العصر الحجري الحديث، بأنحاء مختلفة من الجزيرة العربية. ويتجلى هذا التفرد في اتجاهين، أولهما الإطار الزمني؛ وثانيهما نوعية المعثورات. فأما عن الإطار الزمني، فيعتبر موقع المقر هو الموقع الأقدم زمنيًّا من بين مواقع العصر الحجري الحديث المكتشفة حتى الآن، ففي الوقت الذي أُرخت فيه بعض مواقع العصر الحجري الحديث سواء في شمال الجزيرة العربية –الجوف مثالاً وليس حصرًا– من ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ق.م[٥]، أو في بعض المواقع الجنوبية في الربع الخالي من ٤٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ق.م[٦]، نجد أن تحليل بعض البقايا العضوية المحروقة من موقع المقر باستخدام تقنية كربون ١٤ قد أسفرت عن أن آخر وجود بشري بهذا الموقع إنما يعود إلى ٩٠٠٠ آلاف عام من وقتنا الحاضر[٧]، أي أنه لم يعد له وجود بعد ٧٠٠٠ق.م، مما يؤكد على استغلال هذا الموقع لفترات أقدم من ذلك.

أما الأمر الثاني والذي أبرز من تفرد موقع المقر، هو نوعية المعثورات التي كان لها دلالات حضارية بالغة الأهمية. وجاء في مقدمتها مجموعة من التماثيل الحجرية التي تجسد لأشكال حيوانية متعددة، تفاوتت ما بين الخيول والكلاب السلوقية، والأسماك والنعام والصقور، وغيرها من الحيوانات المستأنسة، مثل الماشية والأغنام. ولعل الجدير بالذكر هنا هو أن تماثيل الخيول والتي بلغ أكبرها ٨٦سم طولاً، وتزن ما يقرب من ١٣٥ كجم ومقطوعة بالكامل من حجر محلي – تُعد هي الأكبر من بين المجسمات الحيوانية التي ظهرت في العصر الحجري الحديث، من بلدان الشرق الأدنى القديم[٨]، حيث كان المتبع في الحضارات المماثلة أن تكون التماثيل الحيوانية: إما مصنوعة من الطين أو الفخار؛ أو حتى من بعض الأحجار الهشة، ولها أحجام صغيرة للغاية، وكأنها دمًى أو تماثيل نذرية، وهذا من جانب[٩]، أما من الجانب الآخر: فيُعد هذا الكشف فاصلاً في كون ظهور المحاولات الأولى لاستئناس الخيول في جنوب غرب الجزيرة العربية فيما بين ٧٢٥٠ -٦٥٩٠ق.م، بعد أن كان معروفًا أن أول من استأنس الخيل هم أهل المناطق الواقعة شمال كازاخستان، حوالي عام ٣٥٠٠ق.م، أي ما يقرب من ٥٥٠٠ عام من وقتنا الحاضر[١٠].

ولم تكن تماثيل الخيول وحدها هي ما منحت هذا الموقع وحضارته تلك الأهمية العظمى، فهناك العديد من الدلالات الحضارية التي أسبغت على هذه الحضارة سمات ومظاهر سابقة لعصرها، إلا أن هذا البحث ليس بمكان لعرض كافة هذه المظاهر الحضارية، بل يكتفي فيه الباحث بعرض واحدة منها؛ لما لها من أثر كبير في الحكم على مدى تقدم هذه الحضارة، ومنافسة معاصريها في منطقة الشرق الأدنى القديم، ألا وهي صناعة النسيج.

وقد يبدو للوهلة الأولى حين نتحدث عن صناعة الغزل والنسيج في العصر الحجري الحديث بالجزيرة العربية، أنه لا يعدو أن يكون مجرد ضرب من الخيال. حيث كان المألوف في شتى مواقع العصر الحجري الحديث المنتشرة بالجزيرة العربية أن الأدوات المكتشفة بها لا تعدو أن تكون مجموعة من الصناعات الأولية، مثل المكاشط والسكاكين ورؤوس السهام، وبعض من الأواني الحجرية التي أصبحت تُشكل بدقة وبراعة أكثر من سابقيها[١١]. في حين أن مثل تلك الصناعة تحتاج من الأدوات والخامات والتقنيات وأنظمة لإدارة العمل، بما لا يتسق وطبيعة العصر في باقي المواقع. في الوقت ذاته نلحظ أن هناك ثمة اتفاق زمني مع الحضارة المصرية القديمة، فقد عُرفت صناعة النسيج للمرة الأولى في مصر القديمة، منذ العصر الحجري الحديث أيضًا، في كل من مواقع الفيوم ومرمدة بني، سلامة[١٢]، وكذلك صناعة الغزل الذي بدأ في عصر البداري، وكان قاصرًا في بداية أمره على صناعة مجموعات من الحبال، مستخدمين في ذلك مواد وخامات أولية من الطبيعة، مثل الألياف النباتية أو الحشائش. أما الحبال المغزولة من الكتان: فلم تظهر قبل الأسرة الأولى، أي مع بداية العصور التاريخية[١٣]. وكذلك الحال في بلاد النهرين، التي عرفت صناعة النسيج منذ العصر الحجري الحديث هي الأخرى[١٤]. ومن ذلك يجب التعامل مع حضارة المقر بصورة مماثلة، وبنفس القدر من الأهمية للحضارات الكبرى في العالم القديم.

ولدراسة حيثيات صناعة الغزل والنسيج في حضارة المقر، ومدى انعكاس ذلك على تقييم هذه الحضارة، وما بلغه سكانها من تقدم ملحوظ، علينا تناولها من ثلاثة محاور، وهي: وسيلة إدارة العمل في ورش النسيج، والمواد الخام المستخدمة في عمليتي الغزل والنسيج، وأخيرًا الآلات والأدوات المستخدمة في هذه العملية.

وسيلة إدارة العمل:

وفيما يتعلق بالمحور الأول، وهو وسيلة إدارة العمل، فلا ريب في أن صناعة النسيج في موقع المقر، إنما كانت من الصناعات الرئيسة التي انتشرت على نطاق واسع بالقرية. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الكم الكبير من الأدوات الحجرية التي كُشف عنها، وتبين من فحصها أنها قد خصصت لصناعة الغزل والنسيج، التي سوف يعرضها الباحث لاحقًا. الأمر الآخر، والذي يؤكد شيوع وأهمية هذه الحرفة في المقر، هو صناعة سروج الخيول، التي وضحت بصورة كبيرة سواء في الأعمال النحتية المكتشفة بالموقع، أو من خلال النقوش الصخرية، والتي توضح صورة لأحد الفرسان، وهو يمتطي فرسه قابضًا بيديه على السرج[١٥]. وعليه، فكان لزامًا في هذه الحرفة الجماعية أن يكون هناك شكل من أشكال التنظيم الإداري لهؤلاء العمال، من شأنه أن يوزع المهام، ويصرف لهم المواد الخام، ويراقب سير العمل وانتظامه. وقد توحي هذه الحرفة بوجود مثل هذا التنظيم في هذا العصر المبكر، ولم لا؟ وقد شهدت قرية المقر نفسها شكلاً من هذا التنظيم الإداري الذي كان يترأسه شخص ما، أقرب ما يكون لمعنى الزعيم، أو شيخ القبيلة، أو الحاكم. وهو الأمر الذي يمكن الاستدلال عليه من خلال العثور على خنجر من الحجر، يحمل مجموعة من الزخارف على مقبضه[١٦]. (شكل١)

(شكل ١)

وبملاحظة هذا الخِنجر وأسلوب تنفيذه، يتبين أن هذا الخِنجر لا يعدو أن يكون خِنجرًا رمزيًّا، وليس للاستخدام الفعلي. حيث إن نوع الحجر المقطوع منه، وكذلك النصل السميك، يحولان دون عَدِّه سلاحًا فعليًّا يستخدم للنزال، بل هو خِنجر رمزيّ ربما كان مملوكًا لشخص ذي حيثية في القرية، كنوع من التدليل على السيادة والسلطة، كما كان في مصر منذ بداية الأسرات، حين ظهر الملك نعرمر من الأسرة الأولى مرتديًا خنجرًا مثبتًا في حزامه تعبيرًا عن السلطة[١٧]، وكذلك الحال في عصا الراعي التي كانت في مهدها رمزًا للزعامة والسلطة في دفنات عصور ما قبل التاريخ، ثم أصبحت بمرور الوقت من رموز السلطة والحكم للملك المصري[١٨]. أضف إلى ذلك أن صناعة الأسلحة النصلية والقواطع من السكاكين والخناجر والمكاشط في العصور الحجرية، إنما كان يُستخدم في قطعها نوع من الأحجار الصلبة مثل الكوارتزيت أو الصوان أو العظام، فضلاً عن تشذيب نصلها وتدقيقه، حتى يسهل استخدامها في القطع أو الكشط[١٩]. وهو ما لم يتحقق في هذا النموذج من الخنجر الحجري.

وبالقياس على مدى بلوغ الوعي في التنظيم الإداري للقرية أو القبيلة ووضع حاكم أو زعيم على رأسها، فبالأحرى أن يسري ذاك الوعي التنظيمي نفسه على الحرف الصغرى السائدة بالقرية، مثل الزراعة وورش النحت، وكذلك صناعة النسيج. فالمظاهر الحضارية لا تتمثل فقط في البقايا المادية، بل لها جانب آخر معنوي، يتمثل في السلوك الإنساني من التنظيمات والأفكار والعقائد[٢٠]، وهو ما بلغه مجتمع المقر وتفوق فيه، حتى كان له انعكاساته على المعتقدات الجنائزية والدينية؛ فنجد بعضًا من الدفنات داخل الكهوف الصخرية، وقد تم تغطيتها بطبقة من الطين الممزوج بالقش في أسلوب أشبه بالتحنيط[٢١]. بُغية الحفاظ عليها تمهيدًا للبعث في العالم الآخر.

المواد الخام المستخدمة في عمليتي الغزل والنسيج:

أما المحور الثاني من الدراسة والذي يتعلق بالمواد الخام المستخدمة في عمليتي الغزل والنسيج، فهي بحق مثار الخلاف. ولحسم الأمر لا بد من إلقاء الضوء أولاً على نوعية المحصولات التي أنتجها إنسان المقر وفقًا لطبيعة البيئة الجغرافية للمكان. فمن الإطار المكاني: يوجد موقع المقر على أطراف هضبة نجد التي تكثر بها الأودية المنحدرة من المرتفعات، فتغذي السهول بالمياه العذبة تاركة من ورائها أراض خصبة صالحة للزراعة

والرعي والاستقرار. أما من الناحية الزمنية: فهذه الحضارة تتزامن مع مدة ما بعد العصر الجليدي الذي نتج عنه مساحات شاسعة من الشجيرات والأعشاب التي تنمو حول العيون ومجاري الأودية مثلما كان الحال في مناطق الدواسر ووداي رماح والجوف، حتى حدث التصحر، والذي أودى بالحياة في المنطقة بعد العصر الحجري الحديث[٢٢]. وفي هذه البيئة الخصبة انتشرت زراعة بعض المحاصيل المحدودة، التي لنا منها بعض الشواهد الأثرية المستخدمة لصحنها في حضارة المقر، مثل القمح والشعير، وأنواع مختلفة من الحبوب[٢٣]. وليس وليس هناك من الشواهد الأثرية ما يؤكد وجود بعض المزروعات الصالحة للغزل أو النسج، مثل القطن أو الكتان في هذه البقاع. وعلى عكس الحال، فقد ظهر الكتان في بعض مصنوعات النسيج في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، وبخاصة في مقبرة من حضارة أم النار بتل أبرق، ولكن في مدة زمنية لاحقة. ورغم ذلك فغير معروف حتى الآن إن كان هذا النسيج مصنوعًا محليًّا أم مجلوبًا ضمن سلع التجارة الخارجية[٢٤].

ومن ناحية أخرى، ثمة مظاهر حضارية، تكاد تكون متشابهة في ربوع الجزيرة العربية، ومنها: أن أهل وسكان المناطق الساحلية كانوا يعتمدون في المقام الأول من نشاطهم الاقتصادي على صيد الأسماك والكائنات البحرية، في حين أن المناطق الداخلية، وكذلك الأودية التي تتوسط المرتفعات –ومنها المقر– غالبًا ما كان يعتمد سكانها على النشاط الرعوي، حيث رعي الأغنام والماعز والإبل، فضلاً عن نشاط الصيد والقنص[٢٥]. وتوفر حياة الرعي أكثر من مادة خام صالحة ومناسبة لعمليات الغزل والنسيج، ومنها على سبيل المثال: أصواف الأغنام وشعر الماعز. وهذا الأخير كان يتم غزله واستخدامه على نطاق واسع في صناعة الخيام أو تكسية المنازل الصغيرة الخاصة بالسكن، التي تتسق والعصر ذاته[٢٦]. فلم يكن المبتغى الوحيد من تربية الأغنام والماعز هو الحصول على اللحم فقط، بل كانت تمثل مصدرًا مهمًّا للصوف والشعر والجلود، مما أعطاها مكانة وأهمية كبيرة في المجتمعات البدائية[٢٧]. ولعل نماذج تماثيل الأغنام التي عثر عليها في موقع المقر[٢٨]، لا بد أن يكون لها دلالة حضارية مهمة، دفعت إنسان هذه الحضارة لأن يشكل من الحجر ما يجسد صورة هذا الحيوان. (شكل٢)

(شكل ٢)

وإذا كان الرأي السائد قديمًا أن الجزيرة العربية اعتمدت في صناعاتها من النسيج والأصواف على الاستيراد من بلاد النهرين، وبخاصة في عصر حضارتي أور وجيرسو ٥٣٠٠– ٤٨٠٠ ق.م[٢٩]، فيمكن الآن، وبعد اكتشاف موقع المقر، والأدوات المتعددة المستخدمة في عمليتي الغزل والنسيج به – القول بأنه قد بات لهذه الصناعة جذور أقدم من حضارتي أور وجيرسو بما يقرب من ألفي عام، أي أن أقدم شواهد لها كانت حوالي ٧٠٠٠ق.م. فحتى وإن صحت الآراء باستيراد تلك المواد من بلاد النهرين في عصور لاحقة، فقد يكون الأمر قاصرًا على المناطق الشمالية والشمالية الشرقية –ما جاء على سبيل المثال– والتي فرض موقعها الجغرافي ومتاخمتها لحدود بلاد النهرين أن تنشأ بينهما علاقات تجارية حتمية[٣٠]. أما عن حضارة المقر: فما سمحت حقبتها المبكرة، ولا الموقع الجغرافي الذي يتوسط السلاسل الجبيلية، أن يكون للمنسوجات الصوفية أصول خارج الموقع لا سيما وأن أدوات النسج منتشرة بكثرة في المقر، مما يوحي بانتشار الورش الخاصة بالنسيج.

وقد بلغت أهمية الصوف بعد ذلك في منطقة الشرق الأدنى القديم، حتى أصبح يصرف نوعًا من أنواع الأجور للعمال، أو سلعةً مهمةً ومطلوبة تستخدم في المقايضة وتبادل السلع، أو هدايا لعلية القوم؛ ليصنعوا منها الملابس والسجاد والأغطية[٣١]. وقد يوحي ذلك بأن سكان

المقر كان لهم السبق في استغلال وتصنيع المنسوجات الصوفية، أو الأربطة والحبال الصوفية على أقل تقدير.

وتجدر الإشارة إلى أن البقايا الأثرية من موقع المقر قد شهدت على وجود بعض القطع الحجرية التي تزدان بزخارف بسيطة، وقد تمثلت هذه الزخارف على هيئة الحِبال، أو الشرائط المنسوجة من الصوف، كعنصر زخري متكرر، فمنها إحدى الثقالات المستخدمة في صناعة نسج الصوف (شكل٣)، والأخرى جاءت على بقايا إناء من الحجر الصابوني (شكل٤) [٣٢]. ولعل ما يميز كون هذه الزخارف تحاكي نسيج الصوف هو ما يتسم به هذا الأخير من اتساع الغرز في نسيجه، حتى تبدو فيه الأنسجة واضحة ومتباعدة عن بعض، وهو ما تجلى بوضوح في حضارة أوروك في بلاد النهرين في عصر لاحق ٣٠٠٠ ق.م على إناء محفوظ حاليًّا بمتحف بغداد، ويصور عملية نسج الصوف (شكل ٥) [٣٣].

(شكل ٣)

(شكل ٤)

(شكل ٥)

وبمقارنة شكل وحجم الإناء الحجري في (شكل ٤) بالمنظر الموجود في المتحف البريطاني من حضارة أور (شكل ٦)، والذي يمثل مجموعة من حملة الصوف المجلوب ضمن الغنائم[٣٤]، فيمكن أن نلاحظ الآتي:

- يتبين أن كلاً من الشخص الثاني والخامس يحملان على ظهورهما إناءً ضخمًا، له حبل سميك –ربما من الصوف– والذي كان يحفظ به الجدائل القصيرة من الصوف الخام، وهو يكان أن يتطابق مع إناء المقر.
- قد يفسر ذلك سبب صناعة هذا الإناء المعثور عليه في المقر من الحجر الصابوني الخفيف، بعكس كافة المصنوعات والأواني الحجرية الأخرى، وذلك نظرًا لاستخدامه في الحمل والتنقل وليس للتخزين.
- ربما يكون هناك رابط بين استخدامه ووظيفته في حفظ ونقل الصوف، وطبيعة الزخارف المنقوشة على سطحه الخارجي، والتي تمثل في الغالب حِبالاً من الصوف.
- يتبين من الثقوب الموجودة بالقرب من فوهة الإناء، أنها كانت مخصصة لربط الحِبال المستخدمة لحمله، وهنا يختلف في تشكيله عن أواني أور التي أصبح لها فوهة بارزة، حتى يمكن ربط الحبال في التجويف أسفل هذه الفوهات.

(شكل ٦)

الشواهد الأثرية المكتشفة بالموقع:

أما المحور الثالث في دراسة النسيج ومراحل صناعته بحضارة المقر: فيرتبط بالشواهد الأثرية المكتشفة بالموقع، والتي تصنف ضمن الأدوات والآلات المستخدمة في تصنيع النسيج، لتُعد هي الشاهد المادي الذي من شأنه التأكيد على ممارسة هذا النشاط من قبل سكان هذه الحضارة. بداية من أدوات الكشط والمستخدمة في استخراج الصوف والشعر من الدواب، وصولاً لمراحل الغزل وصناعة الخيوط والحبال؛ إذ ظهر ضمن مقتنيات الموقع مجموعة من المكاشط الحجرية المصنوعة بدقة عالية، ولها حواف حادة من إحدى جانبيها[٣٥]، (شكل ٧)، وجدير بالذكر أن هذا النوع من الأدوات الحجرية كان أهم ما يميز صناعات العصر الحجري الحديث، في منطقة الشرق الأدنى بالكامل[٣٦]، ولعل هذه المكاشط كانت مخصصة في المقام الأول لوظيفة تخدم صناعة الغزل أو النسيج. فقد كان من المتبع في المجتمعات القديمة من أجل الحصول على مواد النسج أن تقتلع الصوف أو الشعر من الحيوان بالكامل وليس بقصه من أجل الحصول على أقصى طول لهذه الأنسجة، وكانت وسيلتهم المثلى في ذلك المكاشط التي يقبضون عليها في راحة اليد من الطرف الممهد، مستخدمين الضغط بالطرف الحاد لاقتلاع الصوف[٣٧].

(شكل ٧)

ويبدو من حالة مكاشط المقر ذات الهيئة البيضاوية، أنها كانت تستخدم في كشط مواد لينة وبسيطة، لا تستدعي جهدًا كبيرًا، خاصة وأن مثيلاتها من المكاشط التي كانت تستخدم في تشذيب وتسوية المواد الصلبة، غالبًا ما كان يستخدم فيها الطرق لتقوم بدور الإزميل، وهو ما لم يتحقق في مكاشط المقر التي تعتمد على ضغط راحة اليد. ومن ناحية

أخرى، فكان من المعتاد أن يظهر على حواف المكاشط المستخدمة مع المواد الصلبة بعض الآثار والخدوش والكسور الناتجة عن الطرق والكشط[٣٨]، وهو ما لم يظهر بدوره في مكاشط المقر، مما قد يؤكد استخدامها في اقتلاع مواد النسيج.

كذلك من بين الأدوات الحجرية المكتشفة بالموقع، التي لها علاقة وطيدة بصناعة النسيج، هي تلك الأداة الحجرية الكبيرة الحجم وفقًا لوصف الدكتور الغبان، دون الإشارة إلى وظيفتها أو الغرض منها[٣٩]، (شكل٨). والواقع أن هذه الأداة في وصفها العام عبارة عن كتلة حجرية طولية الشكل، لها كتلة ممتلئة في مقدمتها، ثم تضيق تدريجيًّا وصولاً إلى نهايتها التي تشكلت على هيئة مقبض بسيط، يخلو من أية زخارف أو نقوش.

(شكل ٨)

وواقع الأمر أن هذه الأداة البدائية بهذا التصميم تُعد من المعثورات الفريدة ذات الدلالة الحضارية المهمة لموقع المقر؛ إذ أنها تكاد أن تتطابق مع هيئة المضارب الخشبية، والتي كانت تستخدم في مصر القديمة خلال عملية النسج، إلا أن الفارق هنا أن هذه الأداة تنتمي لحقبة زمنية مبكرة، وبخاصة من العصر الحجري الحديث، في حين أن هذه المضارب قد ظهرت في مصر ليس قبل عصر الدولة الوسطى. وكانت هذه المضارب تستخدم في الأصل من أجل تخليص الأنسجة من العوالق، وتنقيتها من الشوائب قبل غزلها، أو أنها كنت تستخدم في تجفيف المنسوجات والخيوط بالضرب عليها[٤٠].

وقد صورت العديد من مناظر الحياة اليومية المنقوشة، أو المصورة على جدران المقابر من مصر القديمة مجموعات من الرجال أو النساء، وهم يقومون بتصنيع النسيج في مراحله

المختلفة، وكان فريق المرحلة النهائية غالبًا ما يختص بضرب النسيج، مستخدمين في ذلك تلك المضارب السالفة الذكر، والمصنوعة من الخشب[٤١]، (شكل ٩). بيد أن الفارق في مادة تصنيع هذا المضرب بين تلك وذاك، إنما كان مرجعه إلى التفاوت الزمني الكبير بين حضارة المقر ٧٠٠٠ق.م، وعصر الدولة الوسطى بمصر ٢١٢٣– ١٧٧٨ق.م، ولعل هذا الفارق الزمني الكبير يرسخ من عمق المنجزات الحضارية المكتشفة بموقع المقر.

(شكل٩)

بالإضافة إلى ذلك، فهناك بعض القطع الحجرية التي تم الكشف عنها بالموقع، ويبدو من هيئتها أنها مقطوعة بعناية، وبينما كان للبعض منها ثقب واحد يعلوها، فكان البعض الآخر منها يحتوي على ثقبين، أحدهما في الطرف العلوي للحجر، والآخر في طرفه السفلي، ولعله كانت هذه القطع تقوم بعمل الثقالات التي تستخدم في أنوال النسيج لشد الأنسجة[٤٢]. (شكل ١٠)

(شكل١٠)

فقد كان المتبع خلال مراحل تصنيع الغزل من خاماته المختلفة، أن يتم بعد تجميعه وتنظيفه وضربه، البدء في غزل الأنسجة معًا، وذلك عن طريق لف الأنسجة حول بعضها، حتى يتحول الكتان أو الصوف أو أي من غيرها من حالة الأنسجة القصيرة إلى خيوط خشنة وطويلة، وذلك تمهيدًا لتخزينها في هيئة كرات من الخيط استعدادًا لتصنيعها[٤٣]. وكان وسيلتهم في تيسير عملية الغزل أن يثبت طرف الخيط في ثقالات من الحجر أو الخشب؛ لتعمل على جعل الخيط دائمًا في متناول يد العامل، (شكل ١١)[٤٤].

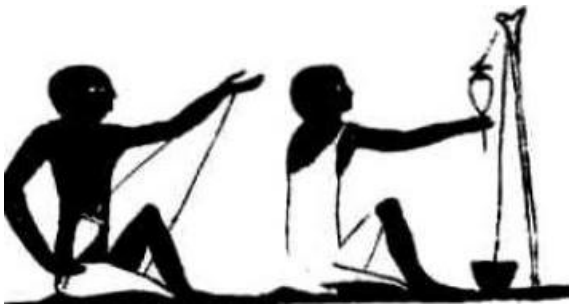

(شكل ١١)

وكذلك الحال بالنسبة لمجموعة من الحلقات الحجرية ذات الثقب الواحد أو الاثنين، التي عثر عليها بين المكتشفات بالموقع، وقد كان يُرجح أنها تمثل عناصر زخرفية مقطوعة من الحجر الملون، وتستخدم في صناعة أدوات الحلي والزينة (شكل١٢)[٤٥]، إلا أنها إذا وضعت في سياق باقي المكتشفات -التي ترتبط بشكل كبير بحرفة النسيج- فيمكن الترجيح بأن هذه الحلقات كانت مجرد أجزاء من أنوال النسيج، التي كانت فيها هذه الحلقات أحيانًا ما تحل محل العصا المتفرعة التي يمر من خلالها الخيط خلال عملية الغزل، كما هو موضح بالشكل السابق. فكان أحيانًا أن تستبدل هذه العصا ببعض الحلقات المثقوبة التي يمر من خلالها الخيط المغزول، وهو الأمر الذي ظهر جليًّا في الأنوال المصرية القديمة (شكل ١٣)[٤٦].

(شكل ١٢)

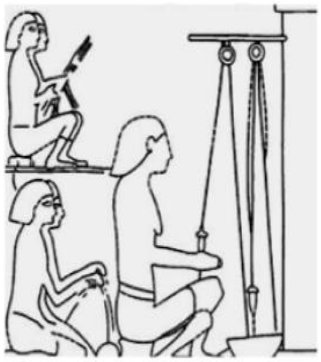

(شكل ١٣)

وإلى جانب هذه الحلقات الحجرية، عُثِر كذلك على عدد من البكرات المنحوتة بعناية، التي يُرجح استخدامها في عمليات الغزل والنسيج، ولها درجة كبيرة من الأهمية الحضارية[٤٧]، (شكل ١٤). وتكمن هذه الأهمية الحضارية في مدى معرفة العالم القديم بالبكرات وبداية ظهورها، فضلاً عن مجالات استخداماتها المتعددة. فعلى الرغم بأن استخدام البكرات العملاقة للأغراض الإنشائية لم يكن معروفًا في مصر القديمة قبل العصر الروماني[٤٨]، فإن هناك نوع آخر من البكرات صغيرة الحجم قد ظهرت في العديد من المجالات الحياتية الأخرى، وقد دلت عليها العديد من الشواهد الأثرية المادية، أو حتى المصورة على جدران المقابر، ومنها على سبيل المثال بكرات بسيطة تُلف عليها خيوط الصيد[٤٩].

(شكل ١٤)

أما عن استخدام البكرات في أعمال النسيج، فكان لها شواهد عديدة في مصر القديمة، فقد ظهر في أحد مناظر مقابر عصر الدولة الوسطى ما يمثل أحد الأنوال الخشبية

ومشدود عليه اثنا عشر خيطًا، يتدلى كل منها من بكرة مثبتة في إطاره العلوي[٥٠]. ومن عصر الدولة الحديثة أمكن العثور على واحدة من البكرات الخشبية، والمحفوظة الآن في متحف ليدن (شكل ١٥)، وعليها نقوش تحمل اسم ونسب صاحبها. وكانت هذه البكرات تأخذ هيئة أسطوانية، ولها تجويف في خط المنتصف فضلاً عن ثقب في محورها، وتصنَّع إما من الخشب أو البورسلين أو أي من المواد الأخرى، إلا أن الخشب كان هو مادة الصنع المفضلة؛ لأنه الأقل وزنًا والأكثر مواءمة للغرض منها، ألا وهو لف الخيوط عليها بعد غزلها استعدادًا لاستخدامها أو لتركيبها في أحد الأنوال[٥١].

(شكل ١٥)

أما في بلاد النهرين: فكانت البكرات الصغيرة معروفة في مجالات متعددة، لم تكن صناعة النسيج من بينها، فكانت تصنع من بعض المواد أو المعادن النفيسة كأداة زينة تستخدم لربط الشعر، حيث عُثر على واحدة من هذه البكرات، والمصنوعة من الفضة في إحدى الدفنات للسيدات[٥٢]. ومن ناحية أخرى فقد كان لها وجود في الآلات الضخمة، حيث كانت تستخدم جزءً أساسيًّا في آلات رفع المياه والري[٥٣].

ومما سبق يتبين أن البكرات المستخدمة في أعمال النسيج لم تظهر في مصر قبل عصر الدولة الوسطى، في الوقت الذي ظهرت فيه عدة نماذج من البكرات المصنوعة من الحجر في موقع المقر؛ لتتسق وملامح العصر وطبيعته. وعليه، وفي ظل توافر عدد من المعثورات التي تؤكد ممارسة إنسان المقر لصناعة النسيج، فيمكن إسناد وظيفة هذه البكرات إلى أدوات النسيج ليستكمل بها هذا المظهر الحضاري، الذي فاق بتأريخه كافة الحضارات القديمة المعاصرة، إلى أن يكشف حديثًا عن ما يثبت غير ذلك.

الخاتمة:

بعد الكشف عن موقع حضارة المقر عام ٢٠١٠م، وتحليل بعض عينات من البقايا العضوية به في معامل الولايات المتحدة الأمريكية، والتأكيد على الحقبة الزمنية التي ينتمي لها هذا الإنتاج الحضاري وتحديده بالفترة ٧٠٠٠ق.م –تلك التي تتوافق مع العصر الحجري الحديث– فيمكن تحديد نتائج الدراسة في ذلك الإطار على النحو التالي:

- يمكن القول من خلال التحديد الجغرافي لموقع المقر الواقع بين المنطقة الوسطى والجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، أن تلك الحضارة كانت ذات جذور محلية، فعلى الرغم من وجود ما يشير إلى علاقات قديمة تتوافق مع هذا العصر بين الجزيرة العربية والحضارات الكبرى المجاورة لها –وبخاصة مصر وبلاد النهرين– فلم يصل إلى موقع المقر أية مؤثرات حضارية خارجية. ففي الوقت الذي تركت فيه بلاد الرافدين أثرًا واضحًا في المراكز الحضارية بشرق الجزيرة العربية، وكذلك ما تركته مصر من بصمة واضحة في مناطق شمال غرب الجزيرة، وكذلك في جنوبها الغربي، فلم نجد أيًّا من هذه المؤثرات في حضارة المقر.

- بات من الواضح في حال أن هناك ثمة علاقات بين حضارة المقر ومصر القديمة، فكان من المتوقع أن يظهر أثر تلك العلاقات في النواحي الحضارية أو العناصر المصورة بالنقوش، ولعل أشهرها الخيول التي لم تعرفها مصر، إلا بعد ما يقرب من خمسة آلاف عام من تاريخ حضارة المقر.

- اتسمت حضارة المقر بالعديد من المظاهر الحضارية والتي أكسبتها صفة التفرد والاستثنائية، ولعل أشهرها استئناس الخيول قبل حضارات العالم القديم أجمع، وكذلك صناعة النسيج الذي بدأ مبكرًا في هذا الموقع، إذ لم تشهد أي من مواقع العصر الحجري الحديث بالجزيرة العربية أية شواهد من شأنها أن تشير إلى وجود أي نشاط في صناعة النسيج وغزله.

- شهدت الدلائل الأثرية بموقع المقر أن تقنيات صناعة النسيج فيها كانت هي الأسبق في العالم القديم، حيث إن الأدوات التي عرضها الباحث مثل المضارب أو البكرات، لم يكن لها ظهور في مصر القديمة قبل عصر الدولة الوسطى بفارق يقترب من ٤٥٠٠ عام.

- أصبح من المقبول أن أهل المقر قد استخدموا الصوف في صناعة النسيج والغزل، حيث

إنه ليس هناك ما يمكن أن يشير إلى أن القوم قد عرفوا زراعة الكتان أو استيراده، في الوقت ذاته الذي انتشرت فيه شواهد استئناس الحيوانات المختلفة ومنها الماعز والأغنام، التي تمثل المصدر الرئيسي لإنتاج الصوف والشعر.

- يحتاج موقع المقر لمزيد من الدراسات واستكمال أعمال الحفائر؛ لما له من أهمية كبيرة، خاصة وأن هناك ما يشير إلى أن سكان هذا الموقع كان لهم من العقائد الدينية والجنائزية ما يستحق الدراسة، وذلك في ظل ما أشارت له بعثة هيئة السياحة والتراث الوطني بالعثور على أبنية مشيدة من كتل حجرية، وكان ببعض منها مجموعة من تماثيل الخيول، بما يوحي بارتباط هذه التماثيل بإحدى العبادات في المنطقة، وكذلك وجود ما يشبه الحصن على تبة مرتفعة، وما في ذلك من دلالة هامة عن بواكير الوعي الدفاعي للمستوطنات البشرية في تلك الحقبة المبكرة.

حواشي البحث

(١) محمد عبدالنعيم، آثار ما قبل التاريخ وفجره في المملكة العربية السعودية، ترجمة عبد الرحيم محمد خبير، الرياض ١٩٩٥، ص١٥٩.

(٢) يوريسزارينس وآخرون، التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية، مجلة أطلال العدد الخامس، الرياض ١٩٨١، ص٢٠–٢١.

(٣) Rose, J. I., "New Light on Human Prehistory in the Arabo-Persian Gulf Oasis", Current Anthropology 51/ 6 (2010), p.850.

(٤) علي الغبان، حضارة المقر، جزور الخيل العربية، إصدارات الهيئة العامة للسياحة والتراث الوطني، قطاع الآثار والمتاحف ٢٠١٧، ص٨.

(٥) Loreto. R., "New Neolithic Evidence from the Al-Jawf Region: an outline of the Historical Development of Dumat Al-Jamdal", Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 43, (2013), pp.218-221.

(٦) Di Mario. F., "The Western ar-Ruba al-Khali Neolithic: New Data from the Ramlat as-Sabaatayn (Yemen Arab Republic)", Annalidell' Istitutouniversitarioorientale di Napoli 49, (1989), p.112.

(٧) علي الغبان، حضارة المقر، ص٩.

(٨) Harrigan, P., "Discovery at al-Magar", Saudi Aramco World63/3, May/June (2012), pp.2-9. https://archive.aramcoworld.com/issue/201203/discovery.at.al-magar.htm

(٩) Langin-Hooper, S., Figuring Out the Figurines of the Ancient Near East, North Carolina, 2014, p.47;Benzel, K., Art of the Ancient Near East: A Resource of Educators, Metropolitan Museum of Art, 2010, p.11.

(١٠) علي الغبان، حضارة المقر، ص١٠.

(١١) محمد عبدالنعيم، آثار ما قبل التاريخ، ص١٧٠.

(١٢) Caton-Thompson, G & Gardner, E. W, The Desert Fayum, London, 1934, p.36.

(١٣) ألفريد لوكاس، المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكي إسكندر ومحمد زكريا غنيم، القاهرة، ١٩٩١، ص٢٣٠–٢٣٥.

(١٤) Quillien, L., "Flax and Linen in the First Millennium Babylonia BC: The Origins, Craft Industry and use of a Remarkable Textile", in: Prehistoric Ancient Near Eastern & Aegean Textiles and Dress, ed. Marie-Louise, N, Oxbow Books (2014), p.271.

(١٥) علي الغبان، حضارة المقر، ص١١، ٤٨.

(١٦) علي الغبان، حضارة المقر، ص٥٢–٥٣.

(١٧) Petrie, W. M. F., Tools and Weapons, London, 1917, p.28

(١٨) Cherf, W. J., "The Function of the Egyptian Forked Staff and the Forked Bronze Butt", ZeitschriftfürägyptischeSprache und Altertumskunde 109(1982), pp.86.ff

(١٩) Ruiz, A., The Spirit of Ancient Egypt, New York, 2001, p.204

(٢٠) محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، بيروت ١٩٨٧، ص٢.

(٢١) علي الغبان، حضارة المقر، ص١١.

(٢٢) Peregrine, P. N & Ember, M., Encyclopedia of Prehistory, vol.8:South and Southwest Asia, 2003, p.78.

(٢٣) علي الغبان، حضارة المقر، ص١١.

(٢٤) Magee, P., The Archaeology of Prehistoric Arabia: Adaptation and Social Formation from the Neolithic to the Iron Age, Cambridge University Press, 2014, p.120.

(٢٥) Petraglia, M. D&Rose, J. I., The Evolution of Human Populations in Arabia: Paleoenvironments, Prehistory and Genetics, 2009, p.60.

(٢٦) Peregrine, P. N & Ember, M., Encyclopedia of Prehistory, p.254.

(٢٧) Hoyland, R. G., Arabia and the Arabs: From the Bronze age to the Coming of Islam, Routledge, 2002, p.90.

(٢٨) علي الغبان، حضارة المقر، ص٢٦.

(٢٩) Magee, P., The Archaeology of Prehistoric Arabia, p.119.

(٣٠) Petraglia, M. D & Rose, J. I., The Evolution of Human, p.263.

(٣١) Biga, M. G., "Some Aspects of the Wool Economy at Ebla", in: Wool Economy in the Ancient Near East and the Aegean, ed. Breniquet, C & Michel, C, Oxford, 2014, p.145.

(٣٢) علي الغبان، حضارة المقر، ص٦٠، ٧٠.

(٣٣) Breniquet, C., "The Archaeology of Wool in Early Mesopotamia", in: Wool Economy, p.71.

(٣٤) Breniquet, C., "The Archaeology of Wool in Early Mesopotamia", in: Wool Economy, p.66.

(٣٥) علي الغبان، حضارة المقر، ص٩، انظر الشكل ص٥٥.

(٣٦) Shea, J. J., Stone Tools in the Paleolithic and Neolithic Near East: A Guide, Cambridge University Press, 2013, p. 258.

(٣٧) Breniquet, C., "The Archaeology of Wool in Early Mesopotamia", in: Wool Economy, p.65.

(٣٨) Clarck, J. J&Yoffee, N., Early Stages in the Evolution of Mesopotamian Civilization, University of Arizona, 1993, p.15.

(٣٩) علي الغبان، حضارة المقر، ص٨.

(٤٠) Shaw, I &Nicholson, P. T., Ancient Egyptian Material and Technology., Cambridge University Press, 2000, p.271.

(٤١) Newberry, P. E., BeniHasan, part I, London, 1893, PL. XXIX;Peet, T. E& Woolly, C. L., City of Akhenaton, part I, London, 1923, PL. XIX; https://www.ucl.ac.uk/museums-static/digitalegypt/textil/tools.html

(٤٢) علي الغبان، حضارة المقر، ص١١، ٥٨–٦١.

(٤٣) Shaw, I & Nicholson, P. T., Ancient Egyptian Material,p.272.

(٤٤) Newberry, P. E., BeniHasan, PL. IV.

(٤٥) علي الغبان، حضارة المقر، ص٤٠.

(٤٦) Shaw, I & Nicholson, P. T., Ancient Egyptian Material, p.273.

(٤٧) علي الغبان، حضارة المقر، ص١١، ٦٢–٦٣.

(٤٨) أحمد فخري، الأهرامات المصرية، القاهرة ١٩٦٣، ص١٨.

(٤٩) Wilkinson, J. G., The Manners and Customs of the Ancient Egyptians, part II, Virginia, 1879, p.61.

(٥٠) Forbes, R. J., Studies in Ancient Technology, part I, Brill Archive, 1969, p.196.

(٥١) Wilkinson, J. G., The Manners and Customs, p.176.

(٥٢) Bertman, S., Handbook to Life in Ancient Mesopotamia, Infobase Publishing, 2003, p.239.

(٥٣) Moorey, P. R. S., Ancient Mesopotamian Materials and Industries: The Archaeological Evidence, Eisenbrauns 1999, p.4؛ سامي سعيد الأحمد، "الزراعة والري"، حضارة العراق، الجزء ٢، بغداد ١٩٨٥، ص. ١٨٢– ١٨٤.